بين الأسف وتبكيت الضمير

يُعتبر الشعور بالإثم في أيامنا هذه مسألة سلبية، انه ذو طابع جزائي. ويرى فرويد في هذا الشعور اللاواعي في عرفه عقبة في وجه الشفاء وبصمة من بصمات الإله المعاقب. غير ان نقيض هذا من شأنه أن يتبيَّن صحيحاً أيضاً: فبعض النّاس يرفضون كل شعور بالإثم إزاء أفعالهم حتى إذا تكشّفت هذه الأفعال محاولات إبادة لشعوب بأسرها.

الإقرار بالذنب من ممارسات التقليد اليهودي فالمسيحي. يرتكب المرء خطيئة فيشعر أحياناً بذنبه في حين الله يرى حتى الشر الخفيّ أو المحجوب. والخطيئة الأصلية هي التي ارتكبها آدم وحواء اللذين ارتبطت بعصيانهما. غير ان الشعور بالإثم المقترن بالشعور بالخجل والعار نلقاه في سائر التفسيرات القاسية للنصوص الدينية المرتبطة هي أيضاً بالمقتضيات القانونية.

وان بعض الأشكال التقليدية من الانتحار كالهاراكيري (أو السيبوكو) الياباني مرتبطة هي أيضاً بخطايا لا تُغتفر أو اخفاقات لا تعوَّض. وقد يحصل الشعور بالإثم أيضاً في معزل عن أي إنتماء ديني. فالاولاد المستغلّون أو النساء المغتصبات يُعتبرون خطأ مذنبين إزاء ما أصيبوا به. ويذهب بعض علماء النفس إلى ان هؤلاء «مسؤولون وليسوا مذنبين»!

الثابت انه ما من كلمة من شأنها أن تعبّر عن شعور عام وأشكاله الخاصة. ليس من اليسير خصوصاً أن نميّز بين مجرّد الأسف من جهة وتبكيت الضمير من جهة ثانية.

يبقى أن نسأل، في غمر ما نتخبّط فيه من خطايا وأخطاء ومغالط في كل المستويات وعلى جميع الأصعدة: مَن ذا الذي يحاول أن يعوّد نفسه الأعمال الحسنة ويتقنها ثم يثابر على فحص ضميره «المتصل» قبل أن يخلد إلى النوم. إلامَ يقضي البعض حياتهم في سكر الطيش ومتاهات الضياع؟ هل ينتظرون صحوة لهم في الأبدية ولات ساعة صحو أو توبة؟

كبار عندنا تراهم يهيّئون الأحوال ليغدو اللبنانيون شعباً عدمياً سُدَّت دونه كل الأبواب وكأن هؤلاء الكبار قد اصطنعوا الشدّة في صغائر الأمور لتعطيل الفكر وإلغاء الاستشرافات والمقاصد الكبرى تمهيداً لهجرات وعمليات توطين، فعلى مَن تراهم يمارسون حكمهم بعد ذلك؟! العدمية ضجر ونفاد صبر فلنتجنّبها!

د. جهاد نعمان

أستاذ في المعهد العالي للدكتوراه